التحولات السوسيومجالية في المدن الجزائرية المتوسطة ذات النشأة الاستعمارية مدينة عين مليلة حالة دراسية

د . بشارة سمير

جامعة أم البواقي الجزائر

البريد الالكتروني: samirbechara28@gmail.com

الملخص

تتناول الورقة البحثية موضوع التحولات السوسيومجالية للمدن المتوسطة في الجزائر ذات النشأة الاستعمارية، حيث و بدخول الاستعمار الفرنسي للجزائر عمل على تشجيع الاستيطان في المناطق السهلية المنبسطة، و هذا بغرض المراقبة و السيطرة على الاقاليم المحتلة من جهة ، و اظهار القوة و الهيمنة الفرنسية من جهة أخرى. و قد تُرجم كل ذلك ببناء المراكز و القرى الفلاحية ، هذه الأخيرة كانت بمثابة نموذج جديد في استهلاك المجال نظرا لكونه خاضع للتخطيط آخذا الخطة الشطرنجية ، و يؤدي وظائف حضرية جديدة، و بالمقابل تتموقع بجوارها السكنات التقليدية التي تأوي الآهالي. لكن بعد الاستقلال أخذت هذه المراكز الاستعمارية في النمو و التوسع و أصبحت اليوم مدنا بحد ذاتها ،خضعت للسياسات العمرانية المتبعة من طرف السلطات الجزائرية ، نتج عنها نسيجا حضريا يضم أشكالا حضرية مختلفة في الشكل والوظيفة، و من هذا المنطلق تأتي دراستنا والمتمثلة في تسليط الضوء على المجالات العمرانية المشكلة في المدن المتوسطة الجزائرية ذات النشأة الاستعمارية التي أعطت صورة حضرية تميز بها، بأخذنا لمدينة عين مليلة حالة دراسية ، ومحاولين وضع اسقاطات وسيناريوهات مستقبلية معتمدين في ذلك على المنهج المسحي . هذه المداخلة تندرج ضمن المحورالثالث: **دور المدن الصغيرة والمتوسطة في حركة التحضر**.

الكلمات المفتاحية

المدن المتوسطة – المركز الاستعماري –التحولات المجالية –التحولات السوسيولوجية– المجال الحضري – مدينة عين مليلة .

Sociological transformations in the middle Algerian cities of colonial origin Ain M'lila, a case study

Abstract

The research paper talked about a topic of spatial transformations and sociological transformations of middle cities in Algeria of colonial origin, Whereas, with the entry of French colonialism into Algeria, he worked to encourage settlement in the flat plain areas, in order to monitor and control the occupied territories on the one hand, and to demonstrate French power and hegemony on the other hand. All of this was translated into building agricultural centers and villages, this latter was a new model in space consumption due to its being subject to planning, following the chess plan, and it performs new urban functions, and in return, traditional housing units that house the people are located next to it. But after independence, these colonial centers began to grow and expand today, they have become cities in their own right, subject to the urban politics adopted by the Algerian authorities, it resulted in an urban fabric that includes urban forms of different form and function. From this standpoint comes our study, which is to shed light on the urban areas problems in the Algerian middle cities of colonial origin that gave an urban image to distinguishes it , we took the city of Ain M'lila as a case study , by trying to develop projections and future scenarios, depending on the survey method.

This intervention falls within the third axis: the role of **small and medium cities in the urbanization movement.**

Key words: Medium cities - Colonial center-spatial transformations - Sociological transformations- Urban space - city of Ain M'lila

مقدمة

لقد شكلت المدينة موضوع اهتمام و بحث العديد من المختصين و ينظر اليها من زوايا مختلفة و متعددة ، فهذا الكيان المعقد يكتسي أهمية بالغة في الحياة البشرية في كونه المجال الذي تتداخل و تتمازج فيه الفعاليات الانسانية وتترجم على أرض الواقع في شكل تصميمات مبنية و غير مبنية. مما جعلها حقل مفتوح لتخصصات مختلفة كالعمران، الجغرافيا، التاريخ ، الهندسة ...الخ . لكل تخصص مقاربة تعتمد على مجموعة من المعايير لتعريف المدينة ، فالجغرافيون ينظرون الى المدينة هي ذلك التنظيم المجالي المتركز على ثلاث عناصر هي : الارض، السكن ، الوظيفة . و علماء التاريخ يرون أنها نتاج و خلاصة الحياة الحضرية كونها المرجع الأول الذي يرجعون اليه لدراسة الحضارات القديمة ويصنفونها حسب الفترة التي مرت بها أما علماء الاجتماع فانهم يعتبرون المدينة مكان للتركز السكاني تربطهم علاقات و مصالح متبادلة ، أي يأخذون المعيار الاحصائي في تعريفهم و يصنفونها على حسب الحجم السكاني.

عرفت الجزائر التحضر منذ العصور القديمة بحكم تاريخها العريق و موقعها الاستراتيجي الذي يسمح لها بالاحتكاك بحضارات البحر الابيض المتوسط ، و مع تنوع و تباين تضاريسها جعل مدنها تختلف عن بعضها البعض ، فنجد مدن ساحلية ، مدن صحراوية ، مدن داخلية ...الخ و بمختلف الاحجام ، فهناك مدن كبيرة (الجزائر العاصمة، وهران، قسنطينة) ، مدن متوسطة ، مدن صغيرة، و تجمعات حضرية. و هناك نوع من المدن الذي يتواجد في الجزائر ألا وهو لمدن المتوسطة ذات النشأة الاستعمارية ، و التي هي اشكالية بحثنا دراسة مختلف التحولات السوسيومجالية التي عرفتها منذ نشأتها الى غاية الوقت الحالي ، و تطورها في المستقبل . و هذا بأخذنا لمدينة عين مليلة حالة دراسية .

01-خلفية تاريخية للتحضر في الجزائر

ان التحضر في الجزائر لس وليد اليوم ، بل تعود جذوره الى الحضارات القديمة التي مرت عليها . أكدتها الشواهد العمرانية و المعمارية ، فقد كانت الجزائر و عغلى مر العصور موطنا لقيام الحضارات بحكم موقعها الاستراتيجي المطل على البحر الأبيض المتوسط . ففي بادئ الأمر تشكلت مستوطنات على الساحل كانت نواة لمدن تتطورت فيما بعد ، على رأسها المستوطنات الفينيقية . و مع دخول الاحتلال الروماني لمنطقة لبلاد المغرب (146ق.م – 429 م) أول ما قام به هو اقامة الحصون و القلاع و بناء المستعمرات للجنود الرومان أصبحت فيما بعد مدنا قائمة بحد ذاتها أهمها تيمقاد ، شرشال ، جميلة ....الخ ،كان لها الأثر البارز في تحديد الشبكة الحضرية للجزائر.

و مع وصول الفتوحات الاسلامية الى شمال افريقيا و ضمها للبلاد الاسلامية و ظهور دويلات (الرستمية، الموحدية، المرابطية، الحمادية ، الزيانية) كان لزاما عليها بناء مدن أخذت نموذجا في تكوينها يتوافق مع العقيدة الاسلامية بكل جوانبها أهمها تيهرت ، تلمسان، القلعة، آشير ...الخ ، اضافة الى تطوير المدن العتيقة التي فتحوها كقسنطينة و مدينة الجزائر . لتليها الفترة العثمانية أين قسمت البلاد الى أربع مقاطعات كبداية للتهيئة العمرانية في الجزائر (دار السلطان، بايلك الشرق، بايلك التيطري ، بايلك الغرب)

و بعد 1830 أي فترة الاستعمار الفرنسي تغيرت السياسة العمرانية ، فقد كان المستوطنون الأوربيون يستولون على الأراضي و السهول الخصبة و اقامة مستوطنات خاصة بهم يتم ربطها بشبكة الطرق البرية و السكة الحديدية لتتطور الى مدن ذات أهمية على المستوى الاقليمي أبرزها مدن: باتنة ، سطيف ، سيدي بلعباس ...الخ . و من جهة أخرى قامو بتطوير المدن العتيقة ببناء أحياء على النمط الأوروبي (عنابة، وهران ، الجزائر العاصمة، قسنطينة). و بعد الاستقلال (1962) تأثرت بالسياسات العمرانية المتبعة من طرف الدولة الجزائرية.

كل هذه التراكمات التاريخية رسمت لنا ملامح المدينة الجزائرية التي تختلف عن بعضها البعض في النشأة و الحجم و البيئة الطبيعية .

02-الشبكة الحضرية الجزائرية

سن المشرع الجزائري عدة نصوص قانونية تتعلق بالمدينة لعل أبرزها و أهمها القانون التوجيهي للمدينة 06/06، الذي حدد مفهوم المدينة ، مبادئها، و توجهات الدولة في المجال العمراني . و قد عرفها على أنها تجمع حضري ذو حجم سكاني تتوفر على وظائف ادارية و اقتصادية و ثقافية. كما حدد القانون 06/06 أصنافها اضافة الى المدن الميتروبولية و المدن الجديدة و المناطق الحساسة (حددها قانون 01/20 المتعلق بتهيئة الاقليم و التنمية المستدامة) الى مدن كبيرة ، مدن متوسطة ، مدن صغيرة، و الأحياء ، معتمدا في ذلك على المعيار الديمغرافي و التراث التاريخي و الثقافي.

أ-المدينة الميتروبولية : تجمع حضري يتجاوز عدد سكانه 300000نسمة ، تحتوي على وظائف و خدمات ذات تأثير على المستوى جهوي أو وطني.

ب-المدينة الكبيرة: تجمع حضري يتراوح عدد سكانه مابين 100000 و 300000نسمة

ج-المدينة المتوسطة: تجمع حضري يتراوح عدد سكانه مابين 50000و 100000نسمة

د-مدينة صغيرة : تجمع حضري يتراوح عدد سكانه مابين 20000 و 50000نسمة

ه-التجمع الحضري: تجمع سكاني يبلغ عدد سكانه على الأقل 5000 نسمة

و-الحي: جزء من المدينة يتم تحديده على أساس مجموعة من المعطيات (المرفولوجية ، تاريخ الانشاء ...الخ)

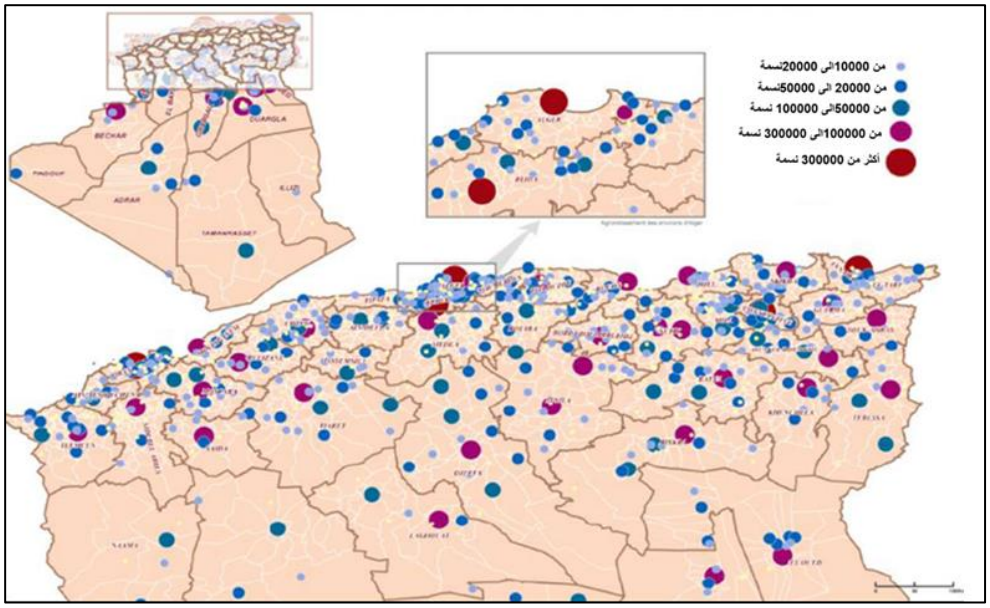

الشكل 01: الشبكة الحضرية الجزائرية

المصدر: (ARMATURE URBAINE 2008 ,2011, P 67)

03-المدينة المتوسطة ضمن الشبكة الحضرية الجزائرية

المدينة المتوسطة هي الفئة الانتقالية أو الوسطية بين المدن الصغرى و المدن الكبرى، تمارس دور التأطير والخدمة للمجال الريفي ، تتحكم في العلاقات الاقتصادية و البشرية و تؤدي دورا مركزيا في عملية الموازنة بين مجالات النفوذ المستقطبة و أحواض الخدمات المحلية **(بن صوط صورية، 2018، ص ، 166)**

حجم التجمع (نسمة)	العدد
من 5000الى 10000	283
من10000الى 20000	238
من 20000الى 50000	142
من 50000الى 100000	47
من 100000الى 300000	33
أكثر من 300000	5

الجدول 01: توزيع التجمعات على حسب الحجم السكاني

المصدر: (ARMATURE URBAINE 2008 ,2011 ,P 40)

04-مدينة عين مليلة : مدينة متوسطة ذات نشأة استعمارية

أ-تقديم المدينة

✓**الموقع الاداري:** تقع مدينة عين مليلة في الشمال الشرقي الجزائري ضمن السهول العليا القسنطينية على ارتفاع ، اداريا تابعة لولاية أم البواقي. تحتل المدينة موقعا استراتيجيا أهلها لأن تكون همزة وصل بين وسط الشرق و الغرب من خلال الطريق الوطني 100 ، و بين مناطق الساحل الشرقي و الجنوب الشرقي من خلال الطريق الوطني رقم 03. كما يمر عليها خطين للسكة الحديدية: قسنطينة – تبسة و قسنطينة – بسكرة .

✓**الموضع :** تتموضع مدينة عين مليلة على سهل يحيط به مجموعة من الجبال تنقسم الى سلاسل جبلية صغيرة متباعدة عن بعضها البعض بشكل واضح ضمن السهول العليا القسنطينية بارتفاع 775م على مستوى سطح البحر**(المخطط التوجيهي للتهيئة و التعمير لبلدية عين مليلة 2004).**

ب-التحولات السوسيومجالية بمدينة عين مليلة

➢ **الفترة الاستعمارية:** ظهرت النواة الاستعمارية التي تمثل مركز المدينة الحالي مشكلة من مجموعة من البنايات ذات الشكل المستطيل و المربع ، يتوسطها الطريق الوطني رقم 03 ، تحتوي على مرافق عمومية موجهة لخدمة المعمرين أهمها : المستشفى، ملعب، كنيسة ، مقبرة، محكمة . و خلال الثورة التحريرية الكبرى الممتدة من 1954 الى 1962 شهد المركز الاستعماري تطورا مجاليا بسبب النزوح الريفي الكبير وبناء المحتشدات من قبل السلطات الاستعمارية.

ما يمكن ملاحظته خلال الفترة الاستعمارية هو وجو نمطين من البناء هما النمط الاوروربي الذي يتميز بالخطة الشطرنجية ، و النمط المحلي التقليدي الذي كان عبارة عن سكنات متباعدة مبنية بمواد هشة كان لتقسيم الاراضي الزراعية في هيكلته.

➢ **(1962 – 1974) السنوات الاولى من الاستقلال** : استمر التوسع حول أطراف النواة الاستعمارية بشكل عشوائي و فوضوي (مباني من الطين والحجارة) بسبب النزوح الريفي ، و قد قدر عدد السكان نهاية الفترة 12638 نسمة (احصاء 1966) .

➢ **(1966-1977): فترة التوسع المنظم:** عرفت مدينة عين مليلة في هذه المرحلة تطورا عمرانيا منظما ، اذ أصبح نمو المدينة يسير بفعل قرارات سياسية تبعا للمخططات التنموية الكبرى.ففي اطار المخطط الثلاثي(1967-1969) استفادت من برنامج خاص لبناء 360 مسكن، و في اطار سياسة التحصيصات البلدية استفادت المدينة من تحصيص بلدي انجز في الجهة الغربية. و أهم ما ميز الفترة هو التوسع في الجهة الغربية و الجهة الشمالية ، و ذلك بانجاز العديد من التجهيزات في صورة سينما النصر، سوق المواشي، مخزن الحبوب...الخ.

بلغت المساحة المبنية نهاية الفترة (1977) حوالي 142.10هكتار بتعداد سكاني بلغ 18345نسمة(احصاء 1977).

➢ **(1977-1987): فترة المشاريع الكبرى**: خلال هذه الفترة شهدت المدينة حركة عمرانية سريعة و مكثفة لا سيما بعد توطين المنطقة الصناعية بالجهة الشمالية(تدخل في اطار تشجيع الدولة للتصنيع) و بناء المستشفى بطاقة استيعاب 240سرير و مقر الحماية المدنية في الجهة الجنوبية (حي قواجلية)، وكذا انشاء مركز التكوين التابع للشركة الوطنية للكهرباء و الغاز بالجهة الشمالية الغربية. كما استفادت المدينة من برنامج بناء 900 مسكن في اطار المخطط الخماسي الأول للتنمية(1980-1984). و بحسب احصاء 1987 بلغ عدد سكان المدينة 33345 نسمة.

● **الفترة الرابعة(1987-1991):** هي فترة قصيرة تأثرت بتبعات أحداث 1988 و بداية تراجع الدولة في مجال التعمير ودخول القطاع الخاص كفاعل مهم في عمليات البناء و التعمير.فظهرت مجموعة من التحصيصات الموجهة للبناء الفردي. كما انجزت العديد من التجهيزات تمثلت في المركب الرياضي، ثانوية مساس، متقن بوعافية، و العديد من المرافق التعليمية.

● **الفترة الخامسة(1991-2010): فترة الانفجار العمراني**: عرفت المدينة خلال هذه الفترة توسعا مجاليا كبير وفي جميع الاتجاهات الممكنة اذ :

-في الجهة الشمالية: ظهور المنطقة السكنية الحضرية الجديدة **ZHUN** و حي النور الذي يضم سكنات ذات النمط الفردي و الجماعي.

-في الجهة الجنوبية : تلاحم عمراني بين المدينة و حي قواجلية الذي كان عبارة عن تجمع ثانوي نتيجة توسع البناء الفردي (حي 01 نوفمبر 01 ، حي 01 نوفمبر 02).

-في الجهة الشرقية: ظهور منطقة النشاطات و التخزين.

-في الجهة الغربية : حي 05 جويلية (سكنات جماعية و فردية) و انشاء المركب الرياضي.

في 2008 قدرت مساحة المدينة بحوالي 1070.18 هكتار بمعدل استهلاك بلغ 32.55هـ / السنة، ليكون بذلك ضعف ماتم بناؤه قبل 1990، و بتعداد سكاني وصل الى 76754نسمة(احصاء 2008).

● **الفترة السادسة(2010-2018):** خلال هذه الفترة عرفت المدينة استمرار التوسع العمراني وفق المخطط التوجيهي للتهيئة و التعمير ل2004 ، فظهرت أحياء كاملة في صورة مخطط شغل الأرض رقم 03 في الجهة الجنوبية الغربية الذي هو عبارة عن منطقة للسكن الجماعي بصيغة السكن الاجتماعي و التساهمي . كما ازدهر البناء الفردي بشكل لافت بفضل الانتعاش الذي عرفه قطاع التجارة بالمدينة، ضف الى ذلك انجاز العديد من التجهيزات الخدماتية و التعليمية لعل أبرزها القطب
الجامعي في الجهة الجنوبية.

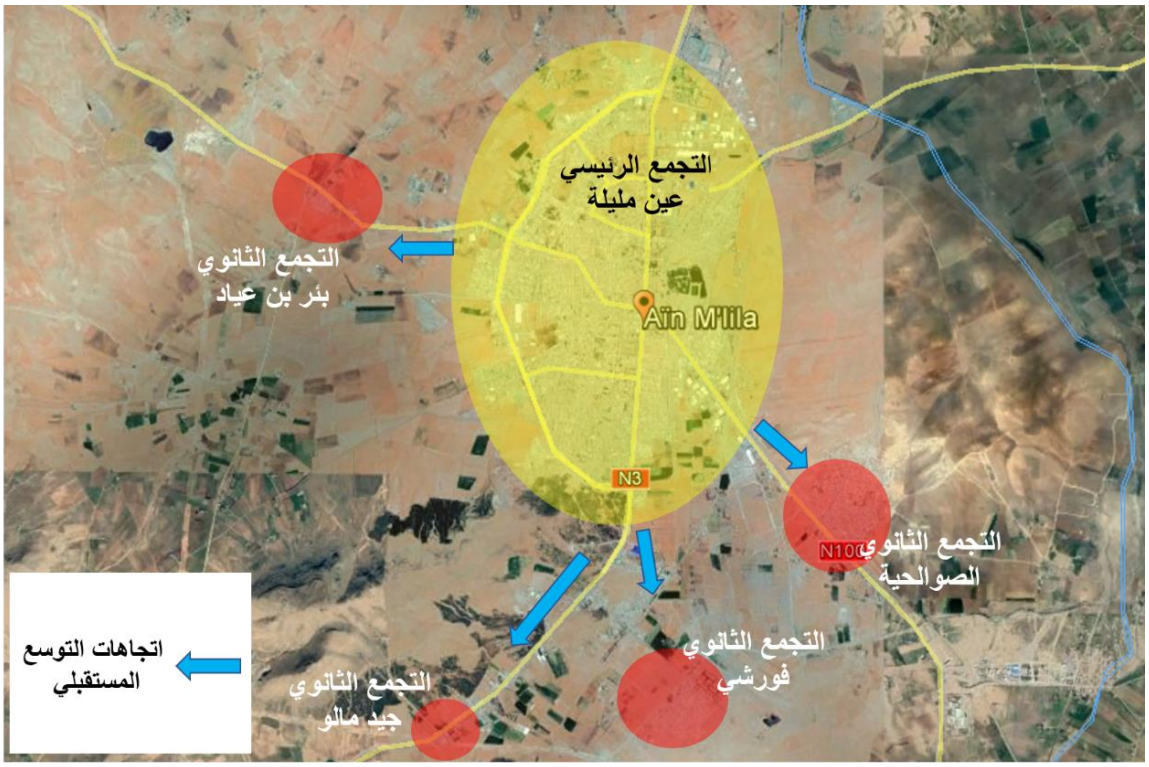

الشكل 02: الوضعية الحالية لمدينة عين مليلة و اتجاهات التوسع

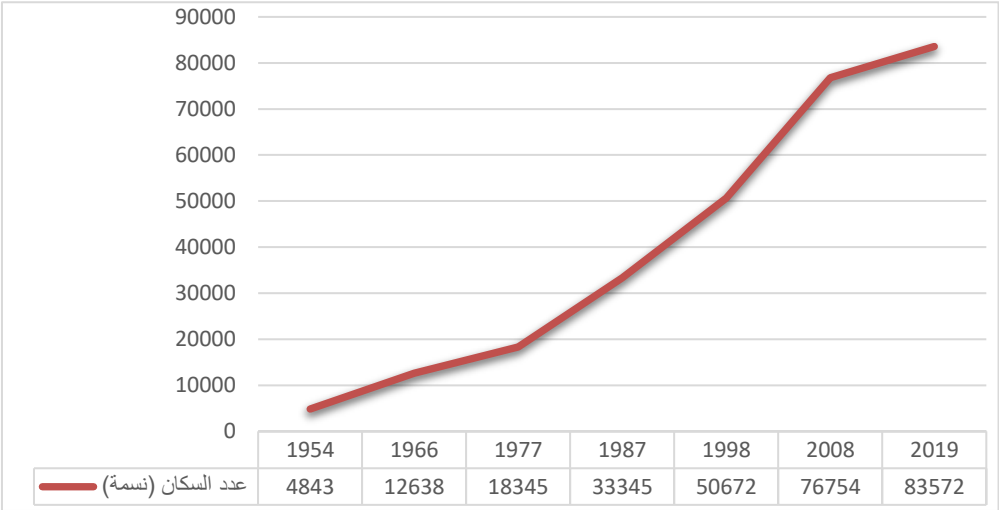

الشكل 03: التطور السكاني لمدينة عين مليلة

المصدر: تعداد 1966-1977-1987-1998-2008 + معطيات مديرية البرمجة و متابعة الميزانية

النمط العمراني	الخصائص
الأوروبي	ظهر خلال الفترة الاستعمارية يتمركز وسط المدينة، يتكون من مجموعة من السكنات الفردية و بعض التجهيزات، تظهر بشكل منتظم في جزيرات ذات أشكال هندسية يغلب عليها الشكل المربع والمستطيل،

	و بارتفاع لا يتعدى الطابقين.لكن في السنوات الأخيرة أدخلت عليها عمليات التجديد
التقليدي المحلي	اتخذ مورفولوجيات وخطة غير منتظمة تختلف من شارع الى شارع اخر. لتبدو مزيجا يجمع بين النمط التقليدي والأوروبي،كما أن مبانيه تنمو تبعا لتجزئة بسيطة بحسب الوضعية الاجتماعية للساكنين. أي أنها تستجيب للخصائص العمرانية التقليدية ومحاولة إدماج عناصر الحياة العصرية. و في السنوات الاخيرة شهدت أغلب السكنات تجديد كبيرة. و اعادة البناء بطريقة حديثة. نجده في كل من حي قواجلية 01 ،حي خنفري، و حي رقايزي.
التحصيصات	هي شكل من أشكال التوسع المنظم، ذو هندسة معمارية تحمل الصفات العصرية كالانفتاح نحو الخارج.تتواجد في في الجهة الشمالية والجنوبية و الغربية. تتميز الواجهات العمرانية بوجود اما الوظيفة التجارية (المحلات التجارية) في الطابق الأرضي ، أو مرآب للسيارة أو للسكن. ثم تأتي الطوابق العليا ومفتوحة على الخارج بواسطة شرفات
السكن الجماعي	يتمثل في المنطقة السكنية الحضرية الجديدة(**ZHUN**) ، حي 05 جويلية، حي النور، و مخطط شغل الارض 03.هي شكل من أشكال التعمير المخطط جات لحل أزمة السكن، تظهر على شكل وحدات سكنية في عمارات متعددة الطوابق
نصف الجماعي	عددها حوالي 82 مسكن نجده في كل من حي قواجلية 01 جنوب المدينة و حي 05 جويلية في الجهة الغربية

الجدول 02 : الانماط الحضرية المتشكلة في مدينة عين مليلة

المصدر: (بشارة سمير ، 2019، ص 65)

خاتمة

مما لا شك فيه أن الشبكة الحضرية الجزائرية تشكلت بفعل التراكمات التاريخية للتحضر عبر الزمن ، فقد عرفت تحضرا منذ القدم كانت بصماته واضحة في التوزيع الجغرافي للمدن، و في محاولة لخلق التوازن الجهوي سعت الدولة الجزائرية منذ الاستقلال الى تنظيم مجالها من خلال وضع استراتيجية و رؤية مستقبلية للتحكم الجيد في مجالها ، و قد تمثلت في مختلف السياسات و القوانين التي تبنتها ،أهمها قانون المدينة 06/06 الذي وضع تصنيف مضبوط للمدينة يعتمد

فيه على عدة اعتبارات، و من بين المدن نجد المدينة المتوسطة ، هذه الاخيرة لها أهمية كبيرة في خلق التوازن الاقليمي نظرا في كونها همزة وصل بين المدن الكبرى و المدن الصغرى.

لقد تبين لنا من خلال الدراسة أن مدينة عين مليلة واحدة من المدن المتوسطة ذات النشأة الاستعمارية في الشبكة الحضرية الجزائرية (الشرق الجزائري) ، عرفت منذ نشأتها تحولات سوسيومجالية بفعل عدة عوامل ، أخذت أشكالا متباينة في استهلاك المجال مجسدة في الأنماط العمرانية التالية: الأوروبي، التقليدي المحلي، التحصيصات ، السكن الجماعي و نصف الجماعي، اضافة الى التجهيزات الكبرى.

و بنظرتنا المستقبلية ستصبح المدينة ضمن مصاف المدن الكبرى ذات الاهمية الاقليمية بفضل ماتحتويه من خدمات و تجهيزات مهمة تسمح لها بفرض هيمنتها ، الا أنه و لابد من تحسين محيطها العمراني الذي يعاني من مشاكل بالجملة.

قائمة المراجع

- **بشير التيجاني (2000):** *التحضر و التهيئة العمرانية في الجزائر*، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر
- **بوبكر حربوش (2017):** *النمو الحضري و رهان التنمية الحضرية المستدامة أي سياسة* ، مجلة العلوم الاجتماعية، جامعة سطيف 02
- **بن صوط صورية (2018/2017):** *النظام القانوني للمدينة في الجزائر*، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في الحقوق، تخصص قانون عام ، جامعة الجزائر 01.
- **جميدة نزاري (2009/2008):** *عوامل النمو الحضري في المدن المتوسطة دراسة ميدانية بمدينة العلمة ولاية سطيف* ، مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في علم الاجتماع الحضري، جامعة الحاج لخضر باتنة
- القانون التوجيهي للمدينة 06/06 المؤرخ في 20فيفري 2006
- القانون 01/20 المتعلق بتهيئة الاقليم و التنمية المستدامة .
- احصاء 1966-1977-1987-1998-2008.
- المخطط التوجيهي للتهيئة و التعمير لبلدية عين مليلة
- **ONS (2011)** : *l'armature urbaine 2008*.